مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: علاقة المجتمع العربي بالموت والموتى في العصر الوسيط من خلال كتاب (المقابر والمشاهد بجانب مدينة السلام)
اسم الكاتب: محمد صلاح بوشتلة
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/9092
تاريخ الاسترداد: 2026/05/13 00:15 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH

مجلة جامعة الشارقة

مجلة علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

عدد B

المجلد 17، العدد 2
ربيع الثاني 1442 هـ / ديسمبر 2020م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

ديسمبر 2020م **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية** المجلد 17 العدد 2 (B)
https//:doi.org/10.36394/jhss/17/2B/4

علاقة المجتمع العربي بالموت والموتى في العصر الوسيط من خلال كتاب «المقابر والمشاهد بجانب مدينة السّلام»[1]

محمّد صلاح بوشتلة[2]

تاريخ الاستلام: 2018-07-07 **تاريخ القبول: 2018-12-20**

ملخص البحث:

المقابر والمشاهد في تاريخنا القديم، وليس في تاريخ بغداد فقط، بل وحتى الخرابات التي بقيت من بعضها، قد تشكل الأيقونة الأهم؛ لفهم مراحل تاريخية، كما للإحاطة بالذّهنيات، وكذا لفهم نشأة تقاليد دينية واجتماعية ما تزال حاضرة إلى اليوم، فالمقابر والمراقد والمزارات، في مجتمع يُكْبِرُ من شأن الأموات في الوقت الذي يهاب الموت، هي مآثر تقف موقف الشّاهدة عند المؤرخ، توجهه وتمده بالكثير من الفرضيات، وتؤكد ما قد يتوصل إليه، فحينما يجد المرء في الأرض الخلاء أطلالاً كثيرة، فإنه يستنتج أن البلاد كانت معمورة في الماضي، أما إذا لم ير شيئاً من ذلك، فلا يستطيع أن يصل إلى أيّ نتيجة، إذ الواقعة تقع فتتجسد في شاهدة، وحينما يعثر المؤرخ على الشّاهدة فإنه يستحضر حتما الواقعة، منها يستوحي تساؤلاته، ومنها يبحث عن شواهد جديدة قد تُعينه على الإحاطة بأخبار الحادثة. وتبقى المقابر والأضرحة وكتب المناقب مصدراً مهماً لأي عملية تأريخية لما كان، بل ولفهم الحاضر.

إن كتاب المشاهد بجانب مدينة السّلام لعلي بن أنجب ليس لوحة تصور لنا حياة الإنسان البغدادي فقط، وإنما تنقل، وبشكل دقيق، اعتلاجات المعيش اليومي للمجتمع العربي في العصور الوسطى من خلال علاقته بالموت والموتى وبمراقدهم، إذ لا يتعلق الأمر بحكايا بسيطة، وإنما بمعيش يومي يُخفي هواجس ومشاعر وثقافة يستحق معها كتاب ابن أنجب أكثر من وقفة، وأكثر من قراءة بزوايا نظر متعددة.

الكلمات الدالة: الموت، المقابر، بغداد، الجنائز.

---

(1) لـ - علي بن أنجب السّاعي (ت 674 ه)، المشاهد بجانب مدينة السّلام ومواضع قبور الخلفاء أئمة الإسلام، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين، و محمد سعيد حنشي، (الرباط: منشورات الخزانة الحسنية، 2008) ط 1.

(2) كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض (مراكش - المغرب)
bmsalah83@yahoo.fr

على سبيل التّقديم:

من منظور الفلسفة الأبيقورية يبقى الموت -في النّهاية- شيئاً لا يستحق الاهتمام، إنه موضوع يجب تهميشه، وعدم إعارته أيّ أهمية، فما بالك بالاشتغال به، فأمره، بالنّسبة لنا نحن الأحياء، لا يهمنا في شيء، فنحن في كلتا الحالتين التي نكون عليها؛ أي بين حال الموت وحال الحياة، لا ضرورة أمامنا للخوض فيها، والتّأثر بها، فنحن إن كنّا في وضع الحياة، فهو لا يعنينا كأحياء أصحاب حركة ونشاط، وإن كنّا في وضع الموت، فهو أيضاً لا يعنينا، لأننا، ببساطة، غير موجودين أصلاً، فحضور الموت لا يتم إلا عند غيابنا التّام، ووجودنا لا يتم إلا عند غيابه التّام عن ساحة وجودنا.

بالنّسبة لحضارتنا يبقى الموت لدى فضاءاتها العمومية المشتركة، شيئاً بالغ الأهمية، ومثار تفاعلات لا تنتهي، لا يمكن تهميشها؛ إذ يصير للموت مكانٌ هو الأهم بيننا، ويصير حيز الفعل، المنسوب بشكل أو بآخر للأموات، الأكثر تأثيراً وفعالية، وهذا ما تؤكده أعداد الأضرحة والمراقد الهائلة في جغرافيا العالم الإسلامي الدينية، وما ترسخه من جهة أخرى أعداد الزّائرين لهذه المراقد والأضرحة وأعداد المرتبطين بها، وكذا عدد كتب المناقب والطّبقات المخلدة لسير من ماتوا، وهذا الموقف من الموت والأموات هو ما يفيض بذكره كتاب المشاهد والمقابر لعلي بن أنجب، بشكل يصير الموت الشّيء الأهم والأكثر أهمية في حياة الإنسان البغدادي، الذي ما هو إلا نموذجٌ يحيل على باقي الأفراد والجماعات المكونة لسوسيولوجيا العالم الإسلامي الثّقافية والدّينية في العصر الوسيط.

1. المحقق وعالم الأموات:

تحقيق النّصوص عند أحمد شوقي بنبين، وعند كثير من المحققين، عملٌ يرقى إلى مقام إحياء الموتى، أو ربما إلى درجة إبراء الأكمه، ومداواة الأبرص، بإذن الله. كلها أمور معجزة، كما هو تحقيق الكتب المخطوطة أمر معجز، فالتّحقيق وضبط النّصوص القديمة التي نُسي ذكرها، أو كاد أن يندثر رسمها، من وجهة نظر ما، يشبه، وإلى حد بعيد، إحياء العظام وهي رميم؛ ليبقى من جهة ثانية تحقيق الكتاب المخطوط أشد الأعمال ارتباطاً بالموتى، إنه الأكثر تأدًّبا تجاه من ماتوا، والأكثر تعبيراً عن فضيلة الاعتراف نحوهم، وإسداء نوع من الانتماء إليهم والارتباط بهم. وقد يتحايل الموتى على الأحياء، وحيل الأموات كثيرة، أكثر من أن تحصى أو تعد، والتي قد يستغل فيها، وبشكل فظيع، الحب الذي يكنه الأحياء لهم، فيُسقطون الأحياء في أحبولاتهم التي يجعلونهم عبرها في حالة دَيْن دائم لهم، فمن يموتون يتحايلون على الأحياء إذ يتواروْن «تاركين لهؤلاء (من هم على قيد الحياة) مهمة تفسير فكرهم، أي أن يتجادلوا حول ما

قالوه، وما كان ممكناً أن يقولوه، وما كان عليهم أن يقولوه، بل وحول ما لم يقولوه أبداً»[1]، وكل هذه الأسئلة هي نفسها ما يدور حولها المحقق. أحمد شوقي بنبين وببراءة منه، تنطلي عليه، هو الآخر حيل الموتى هذه، فيستيمت في حراسة مذخراتهم العلمية من التّلف والضّياع من جهة، بل ويسهم، وبقسط وافر، في إسقاط المزيد من الأحياء في شَرك الموتى من جهة أخرى؛ بإنارة مسالك التّعامل مع التّراث المخطوط مرّة، وبالعمل على إخراج النّصوص القديمة مرّة أخرى، وسلّها من بين أنياب النّسيان الـمُحقّق ومن ثمة إنفاذ وصية أصحابها، وإن لم يكتبوا وصية لأجل العناية بها، وصية عاجلهم الموت قبل كتابتها، أو خجلوا من تركها.

على الرّغم من أن منطق الموت يسعى دوماً، وبكل وسائله المتاحة إلى أن يكُفّ الميت عن البَوْح، وينهاه عن أي محاولة ممكنة للفعل!، فقانون الموت الذي تثابر الموت في تأكيده هو أن تحرم صاحبها حتى من كشف أسرارها لغير من تأتي لأجل طيِّ سجلاتهم الدّنيوية، فيتساءل متعجباً: «عجبًا لمن نزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه!»[2]. فالموت يعرف كيف يُلزم لسان الميت احترام قوانين الأموات؛ ومن ثم الامتناع التّام عن التّكلم وإتمام ما كان قد شرع فيه بالتتميم أو بالإصلاح أو بالمراجعة، فالموت مهمته أن يُخرس الميت عن الحديث إلى جانب الكتابة بالطّبع.

المحقق، وفي ظل هذه الإكراهات التي لحقت بالأموات وحاقت بسيرتهم، يسعى إلى أن يقوم بالنّيابة عن الميت/ صاحب الكتاب المخطوط بكل ما كان يود أن يقوم به، لو أنه زيد له في عمره، وتُركت له فسحة أمل وعمل، فللموتى أيضاً رغبات لم تُقض وأُمنيات، مع الأسف، لم تُنل[3]. ولأن لفظ ومكتوب المرء أقرب نسباً منه من ابنه ومن ماله، حتى إنك لـ «تجد فتنة الرّجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته» كما يؤكد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ)، فإن أهم مُنية قد تكون للميت هي نشره مكتوباته، في أحل صورة، بالاعتناء المرهف بها، فتكون جهود المحقق جزءاً من مُنية المؤلف/ الميت، بمحاولات الأول إزاحة سائر الأخطاء التي ارتكبها في حق مؤَلَّف المؤَلّف كلٌ من الزّمن بالإضافة إلى هفوات النّساخ، وإلى جانبهما عوامل الطّبيعة التي أتت على روح وجسد الكاتب نفسه، فيجمع النّسخ المتفرقة في مكتبات العالم، ويقارن بينها ليكتشف الأخطاء والتّصحيفات في الهوامش، فيرأب صدع نواقص النّسخ، ويملأ خروم النّسخ الأخرى، في مهمة يوكلها لنفسه ويُلزم نهاره وشطراً صالحاً من ليله بها.

(1) عبد الفتاح كيليطو، آدم أو النّسيان، ضمن لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشّرقاوي، (الدّار البَيضاء: دار توبقال، 1995) ص: 45.

(2) محمّد الشّيخ، كتاب الحكمة العَربيّة، دليل التّراث العَربي إلى العالمية، (بيروت: الشّبكة العَربيّة للأبحاث والنّشر، 2008) ط 1، ص: 569.

(3) لهذا أوصى جعفر بن محمّد العباسي عند موته أن يكتب على شاهدة قبره: «حوائج لم تقضَ، وآمال لم تنل، وأنفسٌ ماتت بحسراتها.».

من منطلق العطف على الأموات، والبرور بمكانتهم وسابقتهم، والاعتراف بأدوارهم في صناعة الحضارة وصياغة الأفكار الملهمة، فالمحقق غالباً ما تحكمه علاقة صداقة لانهائية بأحد الأموات، صداقة قد تغلب على سائر صداقاته الأخرى، حتى إنها لتنتصر على علاقته بأصحابه من الأحياء، فيُلازم في عمله الدّؤوب كتب واحد من الموتى؛ يعالج علل نسخها التي ألحقتها بها علل شتّى، فيَلزمه هو من جهة ثانية اسم ذاك الصّاحب القديم، فما إن يحضر اسم عبد السّلام هارون أو شارل بلا إلاّ ليحضر اسم أبي عثمان عمرو بن بحر، وما إن يأتي على المسمع اسم عثمان يحيى وإبراهيم مدكور إلا ليخطر على البال اسم الحاتمي ابن عربي، وكذا أحمد شوقي بنبين وصاحبه محمد سعيد حنشي اللّذين تحكمهما علاقة الصّداقة الوطيدة التي تحكم أغلب المحققين، علاقة من نوع خاص يحكمها أكثر من سبب بابن السّاعي ابن أنجب بن عثمان (593 ه - 673 ه) والتي منها البرور بأعلام الأمة. فقد حققا له المشاهد بجانب مدينة السّلام ومواضع قبور الخلفاء أئمة الإسلام وكتابه الآخر والمهم الدّر الثّمين في أسماء المصنفين، صداقة قد يفرضها اشتراك المؤلف والمحققين في ذات المهنة، فابن السّاعي، كان هو الآخر قيِّما على المكتبة، وذلك كله ضمن خطّة أو بالأحرى حكمة شيشرونية قديمة تحكم عمل المحققين تفيد بـ «أن الذي له أمام عينيه صديق حقيقي، إنما له أمام ذاته شيء بمثابة صورته المثالية الخاصة [...] وعندئذ يصبح الغائبون حاضرين، والفقراء أغنياء، والضّعفاء أقوياء[...] وما هو أكثر صعوبة على القول، يصبح الموتى أحياء [...]؛ من كثرة ما يبعث على التّقدير والذّكريات ومشاعر الأسف على أصدقائهم. وهكذا يبدو أن البعض قد وجدوا السّعادة في الموت [...] والبعض الآخر في حياة تستحق الثّناء أو التّقريظ»[1]. ولا ثناء ولا تقريظ تجاه الموتى يشبه عمل المحققين حينما يوكلون لأنفسهم مهمة إخراج نصوص الموتى في حلل قشيبة ودونما أخطاء أو خطايا قد تنكد على الميت هناءة القبر وهدأته.

علاقة أحمد شوقي بنبين ومحمد سعيد حنشي بصاحبهما تاج الدّين ابن السّاعي قد يكون لا دخل للأولين ولا لثاني بها، وإنما الأمر قد يتعلق ببساطة بأحبولات القدر وبمكر التّاريخ، فالتّاريخ كان دوماً لاعباً قديراً جداً في صياغة اللّقاءات التي لابد منها، فعلى الرّغم من بُعد الأمكنة، وعلى الرّغم من التّفاوتات التي تفرضها الأزمنة، وعلى الرّغم من الحواجز التي تكون أمام سفر المخطوطات قديماً وحديثاً، فإنها وبحكمة ذات القدَر تُسيَّر نحو صاحبها الذي سيرفع عنها ظلم الزّمن. القدر وحده، وبشيء من السّخرية والمكر الواضحين يعرف لمن يمنح هداياه، فكما منح ابن أنجب حب الكتب وعشق المكتبات. وجعل عالمه هو عالم الكتب والرّفوف، منح المحققَين ما منحه لابن أنجب، فكلهم تخيلوا الجنّة كأنها مكتبة، يجدون فيها سعادتهم العارمة، بعيداً عن جنون العالم وأسواقه، ليصير كلٌّ من ابن أنجب وشوقي بنبين

(1) نقلا عن جاك دريدا، «سياسات الصّداقة»، ترجمة فتحي المسكيني، مجلة يتفكرون، 2015، ع 6، ص: 91.

خازنين لأهم مكتبات العالم في العصر القديم كما حال ابن أنجب خازن كتب خزانة المدرسة المستنصرية وخازن الكتب بالمدرسة النّظامية وهذه الوظيفة السّامية لم تكن تسند، في زمنه، إلاّ للعلماء الكبار وعلية القوم[1]، وفي العالم الحديث كما الحال مع محقق كتابي ابن أنجب الذي كان وما يزال أمينا محافظاً للخزانة الحسنية.

لقد اختار الدكتور بنبين والمؤلف صُحبة الكتب، وعيونهم كانت دوماً معلقة إلى الرّفوف متطلعة إلى العناوين، لا إلى متاع الدّنيا وبهرجتها، الشّغف بالمكتبات كان قدر أطراف العلاقة هذه، ليلتصق اسمهما بالكتب ومصنفيها وبفضيلة العناية بها، وكذا حراستها والذّود عنها، القدر وحده، أيضاً، أرسل أحمد شوقي المولع بالمخطوطات القديمة ليحقق نصوص علي بن أنجب، وليوفر له شروط ذلك، فالنّسخة الوحيدة من كتاب الدّر الثمين التي توقفت بها رياح السّفر في الخزانة الحسنية، لتكون بين يدي أحمد شوقي، رغم كونها نسخة تعود إلى قرن المؤلف، القرن الثامن للهجرة، البعيد زمنياً من قرن المحقق فقد كتبت «بخطّ مشرقيّ قديم يظهر منه أنه كتب قريباً من عصر مؤلّفه»[2].

يكتب محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني صاحب تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألَّف في الكُتب على غلاف كتاب الدّر «هذا كتاب الدّرّ الثّمين في أسماء المصنّفين للإمام المحدّث المؤرّخ البارع تاج الدّين أبي طالب ابن أنجب البغدادي، المعروف بابن السّاعاتي، (...) وهو كتاب عظيم في ستّ مجلّدات، نادر الوجود، لا أعلم أنه يوجد الآن في مكتبة لا في الشّرق ولا في الغرب. ظفرت بهذا المجلّد منه في تونس عام 1340 هـ. كتبه مالكه محمد عبد الحيّ الكتّانيّ الحسنيّ حمد مولاه مسعاه آمين»[3].

إن وقوف رحلة هذه النّسخة الفريدة والوحيدة (unicom) واستقرارها في الخزانة الملكية بمراكش[4] مسقط رأس أحمد شوقي هو بالتّأكيد أمر مُثير لكنه غير غريب عن المسارات التي تدبر من خلالها الأقدار والأمور. لحد السّاعة لم يكن الأمر مجرد اتفاق أو مصادفة، ولن تكون، وإنما بقصد، لكنه قصد ماكر، قصد همس لأحمد شوقي: «ها هي نسخة من كتاب زميل

(1) علي بن نجب الساعي، الدّر الثّمين في أسماء المصنفين، حققه وعلّق عليه أحمد شوقي بنبين، و محمد سعيد حنشي، (تونس: دار الغرب الإسلامي، 1430 ه - 2009 م) ط 1، ص: 31.

(2) محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني (ت 1382هـ/1962م)، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألَّف في الكُتب، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين، و عبد القادر سعود، (الرّباط: منشورات مركز الدّراسات والأبحاث وإحياء التّراث بالرابطة المحمدية للعلماء - سلسلة دراسات وأبحاث (13)، 1434هـ/2013م) ط 1، ص: 148 - 149.

(3) علي بن أنجب البغدادي، الدّر الثّمين في أسماء المصنفين، ص: 63.

(4) علي بن أنجب البغدادي (ت 674 ه)، المشاهد بجانب مدينة السّلام ومواضع قبور الخلفاء أئمة الإسلام، ص: 25.

لك في المهنة، وأسير كتب مثلك، قد أتينا بها إليك. وضعناها بين يديك ! فانظر ماذا أنت فاعل بها. آه وهناك نسخة أخرى من كتاب آخر لصاحبك ابحث أنت عنها». بالتّأكيد لم يكن بوسع أحمد شوقي بمعية محمد سعيد إلا أن يهمها بإخراج النّص الأول الدّر الثّمين وبالبحث عن نص المقابر والمشاهد لزميلهما القديم في حرفة (مهنة) لم تجمعهما في مكتبة بعينها، ولكن جمعتهما ضمن ذات المهمة وهي خدمة الكتب والعناية بها، والشّفقة عليها.

يبقى جهد المحققَين كبيراً، ومهمًّا، فقد لبثا في تحقيق مؤَلف ابن أنجب المقابر والمشاهد حولين كاملين، حولين من الاعتكاف على ضبطه والتّعليق عليه[1]. وهذا ما تُلخصه بشكل واضح الهوامش المترفة والبالغة الثّراء، والتي تشرح كل شيء للقارئ، وتعقب على الأشخاص ومصير الأماكن والتّحويرات التي اتخذها الزّمن في حق مآثر بغداد وآثارها، بل وتجعل المتن أكثر غنى، وأكثر وضوحاً وتعبيراً، إنها الرّغبة والهوس التّحقيقي في أن يكون المحقق دقيقاً جداً مع قارئ الكتاب، لذا كان اللّجوء المتكرر إلى صنع هوامش، وربما لتوجيه ذهن القارئ، مخافة سوء الفهم منه، ومخافة عدم الدّقة التي قد تأتي على المؤلِّف مرة مرة. إنهما يحاولان عبر هذه الهوامش الإشارة إلى ما لم ينتبه إليه الكاتب، أي ما نسيه، أو ما حاول هو عدم الإشارة التّامة إليه، يحددون أسماء الأماكن الجغرافية، ويدققون في حوادث التّاريخ، ويوسعون من دائرة التّعريف بالأعلام. يجترحون كُوات ليفسروا الغامض، ويفسرون حقيقة الموقف وأبعاده، ويستدركون على المؤلف الأصلي، لا بقصد انتهاك حرمة مؤَلّفه بأن ينسبوا له عجزاً عن الإفصاح والتّعبير وإنما لتثوير العمل وبعثه من جديد بجعله كما يشتهي له صاحبه. في مؤَلف المقابر والمشاهد تلعب الهوامش دوراً مهماً، إذ مادام كلما ابتعد الواقع أكثر، وأمسى سحيقاً وبعيداً أكثر فأكثر، وأمست حوادث هذا الواقع موغلة في طبقات التّاريخ؛ مدسوسة بين نُصُوص الكتب، كلما احتاج الكتاب إلى توجيهات يستحدثها الكاتب وتحديد المآثر الباقية والمندرسة أو تبيان التّغيرات التي لحقت أسماء المقابر وما لحق المشاهد والمزارات من خراب وما طرأ عليها من تبديلات وتغيرات.

2. عن جدوى الكتابة عن مساكن الموتى:

في وسط يحتفي بالموتى، ويُعلي من شأنهم، ويهيل عليهم من صفات التّقدير ومشاعر البُرور الكثير، تبقى الكتابة عن المقابر والأضرحة والمزارات أمراً عادياً جداً، بل ضرورياً، فالموت يبقى تتمة لمسار وليس نهاية سيرة ولا حظراً لها، إلى درجة أن جنازة الميت تبقى مكاناً فوق العادة للمباهاة والتّباري والمباءات بين الميت وبقية زملائه الموتى، أو بينه وبين من تركهم خلفه يرتعون في الحياة، ونستحضر هنا يؤثر عن الإمام أحمد متوعداً بعض الطّوائف

(1) المصدر نفسه، ص: 7.

التـي كانـت تحمـل لـه العـداء «بيننـا وبينكم يـومُ الجنائز». الجنـازة هنا لا تعنـي أبداً أنهـا إغلاق تام لحسـاب الميـت الدّنيـوي، ولا طيًّـا لدفتر حسـاباته الشّـخصية، وسـدًّا لسـجل خصوماته السّـابقة التي لـم تُحـل بعـد مـع غرمائـه الدّنيوييـن، والتي لـم يقض فيهـا بقول فصل مع مـن تركهم خلفـه في عالم دنيـاه، وإنمـا هـي اسـتمرار لحياتـه الأولـى ومعاركهـا العنيدة التي لم تُحسـم بعد، ولذات الحسـابات، مـا دام المـوت هـو أحـد ظواهر حياة الفرد المسـتمرة معه، فـ«الشّـخص الميت (إمـا) يعامل كحثالة أو كرمـز»[1]، أي التّـراوح بيـن مـا يجـب التّخلـص منـه ومـا وجـب الاحتفاظ بـه، فالرّمزيـة هي ما تجعـل الأحيـاء يثابـرون فـي الاحتفـاظ بذكريـات الموتـى، وتدفعهم للتمسـك بأشـياء الميـت كاملة أو ببعضهـا فقـط، فـبعد «وفـاة شـوبان ـ مثـلا ـ، قام القوميـون البولونيون بشـق جثته لانتـزاع قلبه. لقد أمّمـوا (قَومَنـوا Natianaliser) هـذه العضلـة المسـكينة، وقامـوا بدفنها فـي بولونيا»[2].

المهـم دَومـاً أن يُحتفـظ للميـت بذكـرى، تُنشّـط ذاكـرة الأحيـاء، ومن جهـة أخرى تحمـي الميت مـن النّسـيان، وتفـرض ضـرورة مـا للنطـق باسـمه بيـن مـن ما تـزال أسـاميهم فـي ديـوان الأحياء، لـذا قـد تكـون شـاهدة قبـر أو ضريـح أو يكون كتاب كلهـم نوابٌ فوق العـادة، وبأثر رجعـي منذ وفاة الميـت ينوبـون عـن أي حُضُـور للميـت، فالكتـاب رجـل و«رجـلٌ هـو الكتـاب»[3]، أحدهمـا ينـوب عـن صاحبـه فـي وقـت الغيـاب، وفقـد الاثنيـن يسـاوي النّسـيان فقـط، والـذي هـو الآخـر «يسـاوي النّعـاس»[4]، والضّريـح وشـاهدة القبـر التـي تحمـل عنـوان الميـت الأخيـر تبقـى نائبـة عـن وجـود الميـت، تذكرنـا بـه، خاصـة إن كان مـن أصحـاب المكارم

علـى الرّغـم مـن أن عنـوان الكتـاب يزخـر بمـا يـدل علـى المـوت، واسـتهلال مقدمتـه لا يحيل إلا إلـى المـوت[5]، غيـر أنـك وأنـت تسـتغرق فـي مطالعـة كتـاب المقابـر والمشـاهد تجـزم أن لا مَـوْتَ هنـاك، وإنمـا الأمـر يتعلـق فقـط بــ «تبديلُ عوالـم»[6]؛ عوالـم لا تختلـف عـن عالمنـا، عوالـم تُشـبه بعضهـا. إنـه انتقـال إلـى دار القـرار التـي نعتقـد أن نَزيلهـا لا يحـرك سـاكناً، ولا يملـك مـن

(1) ميلان كونديرا، الوصايا المغدورة: دراسات في الرّواية، ترجمة معن عاقل، (دمشق: الأوائل للنشر، 2000) ص: 279.

(2) المرجع نفسه، ص: 279.

(3) خورخي لويس بورخيس، قصيدة إسرائيل، ضمن ديوان مديح الظل، ترجمة محمّد أبو العطا، (سلسلة الشّعر، الطّبعة الأولى، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011) ص: 67.

(4) مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، (دمشق: دار كنعان، 1991) ص: 112.

(5) يقول ابن أنجب مستهلا كتابه: «الحمد لله محيي الأموات ومميت الأحياء، الذي حكم على جميع خلقه بالفناء، فلا سبيل لمخلوق إلى الخلود والبقاء، وسوّى في الموت بين الملوك والسّوقة والأغنياء والفقراء، حكمة منه وعدلاً في القضاء» (المقابر والمشاهد، ص: 41.)

(6) سياتل زعيم دواميش، نقلا عن محمود درويش، خطبة «الهندي الأحمر»، ضمن ديوان أحد عشر كوكباً، (الدّار البيضاء: دار توبقال) ص: 33.

أمره شيئاً، على عكس دار الدّنيا التي هي منزل للحركة والابتذال في التّحرك والتّغير الدّائم والأشياء الطّارئة التي تأتي وتذهب، وإنما الأمر على العكس تماماً، فمن نظنهم أمواتاً هم الأحياء بيننا، يتدخلون في كل حركاتنا، حتى أن أمكنتهم التي انزووا إليها هي الأكثر جلبة والأكثر ضجيجاً كما يشهد الكتاب، فكما للأحياء مدنٌ يسكنونها، وأسواق تروج فيها بضائعهم وتتداول فيها أموالهم، فللأموات مدنٌ وأسواق تعج بالمال والمعاملات والبضائع، لهذا قد يكون ماسينيون (1962 م) اختار عنواناً لكتابه عن أحد مقابر القاهرة اسم: مدينة[1] لما قد تمتاز به من شروط تؤهلها لأن تكون مدينة حقيقية[2]، وبعضهم سماها حديقة[3]، فهي ليست مكاناً دائما للحزن والوحشة وإنما هي مكان فوق العادة للتأمل بل وللكتابة[4]، كما هي مكان جيد للقراءة والمطالعة[5].

الذي بناها اختار لها اسماً من أهم كلمات معاجم عالم الموتى اللّغوية: دار السّلام، ليكون اسمهما فألاً حسناً على موتاها، حيث سيتم تعهد عالمهم بالتّشييد والتّعمير وتعهد أسمائهم بالذّكر في كتب التّراجم والمناقب. بشر الحافي من موقف شديد الزّهد والتّعفف دلت عليه كنيته، لخص القول عنها حينما اخترق الترف حياة أهلها: «ما ينبغي لمؤمن أن يقيم بها» ولشدة ما يروج فيها من فتن السّياسة والمال والتّشييد، غير أن ابن حنبل أجاز دخولها للضرورة فقط، كما أُجيز

(1) Louis Massignon, La cité des morts au Caire: Qarâfa, Darb al-A□mar, Institut français d'archéologie orientale, 1958.
ـ محمود محمد جاد، سكنى المقابر في القاهرة: إطلالة تاريخية وبانوراما ميدانية، (القاهرة: دار ماجد، 1992).

(2) مقبرة القرافة التي ألف عنها لويس ماسينيون كتاباً كاملاً، يروي المقريزي أنها كانت لها شرطة، والإقامة فيها كانت مقننة «بهدف دفن الموتى، وحراسة الأضرحة، والاهتمام بنظافتها، وبناء المقابر الجديدة، وإقامة طقوس الموت والدّفن، ورعاية بعض الفقراء وعابري السّبيل والمتصوفة» (محمود جاد، الاحتفاء بالموتى في العصر الإسلامي (مصر) سكنى المقابر، مجلة أوان، العدد رقم 7 - 8 1 يناير 2005، ص: 210.)

(3) سمير أيت أمغار، حديقة الأموات، بحث في تاريخ مقبرة الأشراف السّعديين بمراكش، (مراكش: منشورات آفاق، 2017).

(4) في المقبرة قديما ألّف أبو الفرج ابن الجوزي كتابه الموسوم بـ تقريب الطّريق الأبعد في فضل مقبرة أحمد (المقابر والمشاهد، ص: 43 (هامش))، وفي المقبرة عثر خيري شلبي على المكان الأنسب للكتابة وهو المقبرة ذاتها (فاروق وادي، سيرة الظّل؛ نصوص عن آخر هو أنت، (الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، 2008) ط 1، ص: 97.).

(5) في وصف علي بن أنجب الدّقيق للمقامات والأضرحة البغدادية، يهدي بالنا إلى وجود خزانات كتب في تلك الأماكن، إلى درجة أن ينصب عليها ناظر خاص بها، فيقول عن ضريح خرب وأعيد إعماره من جديد «وعمّر ذلك الموضع مشهداً حسناً، وصار النّاس يقصدونه بالصّدقة والنّذور، وصارت له خزانة لذلك، ورتب فيه ناظر يحفظ ما يأتي النّاس به». (المقابر والمشاهد، ص: 114)، ويقول في موضع آخر عن مراحل إنشاء تربة السّعيدة خاتون «وقد كملت عمارتها، فجاءت مشرقة السّناء فيه الضريح المقدس وعليه ستارة مسبلة، والرحمة بأرجائه منزلة. والآخر فيه خزانة الكتب في مجنب الأبواب، وجعل فيها كتب تشتمل على أنواع العلوم المصنفات، وجواهر المجموعات، التي بخطوط الأئمة الثقات، ووقفت، وجعل ثوابها واصلا إليها، ونورا يسعى بين يديها. (المصدر نفسه، ص: ص 146. 145)..

للمضطـر أكل الميتـة، لهـذا غالبـاً مـا تواتـر عنهـا أن من وراء أسـوارها يطل قرن الشّـيطان، ولهذا لربمـا لـم تهنـأ، فـي تاريخها، بالاسـتقرار قط. دخلهـا من هم في أقصى الشّـرق فخربوهـا، وأحرقوا بيـت حكمتهـا. كانـت حاضـرة الإسـلام علـى الإطـلاق وعاصمـة الخلافـة لقـرون، بـل وعاصمـة العالـم، إنهـا بغـداد، «وأعظـم حواضـر الإسـلام التـي يعبق كل ركن منهـا بتاريخ أثيـل، وأثر جليل، وقـد صنفـت كتـب كثيـرة فـي سـرد تاريخهـا، ووصـف قدرهـا، وتراجـم علمائهـا وأعلامهـا»[1]، وبـذات الاهتمـام البالـغ حظـي موتاها «فـلا يكاد يخلو كتاب فـي تاريخها من أخبـار وروايات تتعلق بمقابرهـا ومشـاهدها، وبمـن دفـن فيهـا من أعلام وعلمـاء، ووزراء وشـرفاء، وخلفـاء وأمراء»[2].

فـي سـائر محكيـات كتاب المقابر والمشـاهد يسـتنتج دوما، عقب كل روايـة ووصف لما يحدث أمـام قبـر أو مـا يعتلـج فـي أحـد المشـاهد كيف يتم تحويـل ذكرى الميت إلـى وجود حقيقي لـه، ليبقى اسماً لـم تتـم عمليـة إفنائـه بشـكل نهائـي وتـام؛ إذ يتـم تحويلـه مـن قبـل الأحيـاء مـن سـيرة موقوفـة الشّـغل ومحظـورة العمـل أو بالأحـرى مـن «مشـغول بنفسـه» إلـى موضـوع للاشـتغال، موضـوع يشـغل الآخريـن ويحظـى باهتمامهـم البالـغ أو لربمـا حتى المبالغ فيـه، ليصير هذا المنتـزع من باقة الباقيـن علـى قيـد الحيـاة، موضـوع احتفال واحتفـاء به، وبموته، مـن جوقة من لم تـأت الفرصـة بعد لتصيبهـم عضَّـة المـوت التي تسـهو ولا تنسـى، إنه موضوع غيـر عادي للتأمل ولاسـتفادة الدّروس والعبـر، ليتأكـد أنـه لابـد دومـا مـن هجـرة عالـم الكـون والفسـاد والانسـحاب إلـى عالم آخـر، وذلك كلـه، كنـوع مـن الإكـرام لـه والحـداد عليـه، لتنقلـب فكـرة انتقـال الميت إلـى عالم السّـكون والفسـاد إلـى فكـرة ممسـوخة وفاسـدة مـن الأصـل، إذ لا انقطـاع لعمـل الميـت، فالحديـث النّبـوي وإن كان يؤكـد انقضـاء صلاحيـة عمـل الموتـى، غيـر أنـه يسـارع ويسـتدرك ليسـتثني لحظـات عملـه وفعله فـي واقعـه، «فـإذا مـات الإنسـان انقطـع عملـه إلا مـن ثـلاث»[3]. يمتـد عمـل الأمـوات فـي بغـداد ليرهـن أعمـال الأحيـاء، وليحـدد عمـل ليلهـم ونهارهـم، وأيـام أعيادهـم واحتفالاتهم، وأيام نشـاطهم وراحتهـم، بافتعـال لربمـا مـن الأحيـاء، حتـى ولـو بدون تدخـل من الموتى أنفسـهم، إذ ليـس لهم من الأمـر شـيء، ففـي زمـن بعيـد يسـتعرض أبيقـور سـاخراً علاقتـه بالموت فقـال: «المـوت لا يعنيني البتـة، فهـو إن وجـد، لـن أكـون موجـوداً، وإن وجـدت أنـا لـن يكـون موجـوداً»، وفـي زمـن قريـب يقـول بـارت: «لسـت مسـؤولاً ولا أتحمل مسـؤولية فعل (الموت). أستسـلم واثقا وأنتقـل بذاتي (نحو مـن؟ نحـو الله، نحـو الطّبيعـة ونحـو الأشـياء كلهـا، ما عـدا الآخـر.)».

(1) المقابر والمشاهد، ص: 11.

(2) تقديم أحمد شوقي بنبين و محمد سعيد حنشي، المقابر والمشاهد، ص: 6.

(3) النّووي، صحيح مسلم بشرح النّووي، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثّواب بعد وفاته، الطّبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، 1349 هـ، 1930 م)، ج: 11، ص: 85.

على الرّغم من أن الموت يبقى دَوماً، كما يقول كوجيف (Alexandre Kojève)، حالة أنطولوجية ذات صبغة فردية وشخصية جداً، مادام ألا أحد يمكنه أو يقدر على أن يموت بدلاً وعوضاً عني[1]، فلكلٍ ميتتُه التي تخصه، ويختص بها، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)[2]، غير أن الموت هنا على طول الحكايا التي تتزاحم في كتاب المقابر والمشاهد لا تبقى مسألة بالغة الخصوصية تهم الميت نفسه أو القريبين من المعني بها الذي أسلم الرّوح لداعيها، إذ تحضر في هذا الكتاب بكل هذا الاهتمام البالغ الذي يصورها عليه مؤلف الكتاب، فلا يقف الأمر عند تجشم عناء حُضُور الجنازة، وما يتبعها من «متطلبات الدّفن» العادية جداً، وإنما إلى التّجرد في أعمال بالغة الجهد والتّعب، بتشييد المزارات والأضرحة، وذلك فور توديع الميت، فتبدأ الأمور سهلة بسيطة كطقس من طقوس التّوديع لتتحول إلى اقتصادات قوية وأسواق رائجة ووظائف كثيرة ومهمة[3].

كما للحياة طقوسها، فللموت -مكمل مسيرة الحياة وطرفها النقيض- طقوسه، ولأن الفراق عزيز على الميت كما هو عزيز وصعب التحمل على من بقوا على ضفة الحياة الأخرى، كان لا بد من أيام أنس يقضيها الأحياء بجانب ميتهم؛ لذا فقد كانت تستغرق قراءة القرآن عند قبر الميت في بعض المقابر الإسلامية شهراً كاملاً «أو أكثر حسب المكانة الاجتماعية للمتوفّي. كما كان من بين هذه المظاهر أن يقام في اليوم التالي للوفاة احتفال عظيم في القبر (...) وكان هذا الاحتفال يتكرر في اليوم الثالث للوفاة (...) كما كان يقام في نهاية الشهر عزاء كبير (...) وكان توزيع الصّدقات والأطعمة عند قبر المتوفّي يستمر طوال الشّهر ترحما عليه»[4]. لتتحول المقابر شيئا فشيئاً إلى مكان يتجاوز أسواق الأحياء رواجاً وجلبة، وليَقلب الأموات المعادلة بفعل من الأحياء أنفسهم، وليقلب مع حالهم قول الأحياء المتكرر عند تأففهم من أوجاع الحياة «إنها حياة كالموت» إلى قول آخر من جانب الموتى «إنه موت كالحياة»، فتنصهر المفارقات وترتفع المتناقضات.

بسبب رؤيا يراها النّائم أو بسبب حكاية سرعان ما تتداول لتصير حقيقة، يتم عبرها بعث الميت من جديد، بتحيين ذكراه وتجديد ذكره، ويستعاد دوره الذي كان له أو الذي لم يكن له

(1) Alexandre Kojève, Introduction à la lecture de Hegel, éd.Paris, Gallimard,1947, p.55.

(2) الآية 30، سورة الزمر.

(3) تتكرر عند علي بن أنجب الصّور والأوصاف الدّالة على الرّواج الاقتصادي الكبير عند المقابر فعن مقبرة باب أبرز يقول: «وهي مجمع أنيس، في ليالي الجمع وعشيّات الخميس، ويزخرف سوقها في ليلتي رجب ونصف شعبان، وأيام العيدين من الزّمان، ببدائع الطّرف، وطرائف التّحف، ونقل الطّرّاف، وهدايا خرسان والأطراف. وتشعل فيها المشاعل، ويكثر بالرّجال والنّساء الجمع». (المشاهد والمقابر، ص: 91.).

(4) محمود جاد، الاحتفاء بالموتى في العصر الإسلامي (مصر) سكنى المقابر، ص: 212.

مطلقاً. إن الحكاية بحسب عبد الحق منصف تحيي أبطالها حتى حينما تميتهم[1]، خاصّة مع أناس يؤمنون وبحرارة كبيرة بحوار الموتى، لكن بتسيير وسياسة ماكرة من الأحياء وبإرادتهم، لأن الميت هنا ليس له من الأمر شيء، ليجعله بالشّكل الذي نراه، أو الذي يودوننا أن نراه على الرّغم مما يحتمل من قوة إيحائية فظيعة، فـ «خطاب ما بعد الموت، الذي هو أيضاً قوة ما، في صلب هذا النّحو. من فضيلة التّقريظ الرّثائي: الكتابة على القبر، أو التّأبين، ذكر الميّت، شهرة الاسم بعد موت الذي يسميه. ذاكرة ما تنخرط مسبقا، منذ أن كنا ما نزال نسميه الحياة»[2]. فالموت ليس نهاية ما انخرط فيه الميت والحي ذات مرة، بل هو محطة لرعاية الصّراع ولتحسس جوانب الأحقاد التي كانت للميت أو التي صارت عند الأحياء.

الأمر هنا يتجاوز أمر التّعظيم «لمن يقبض الأرواح»[3]، أو التّكريم لمن قُبضت روحه، ويتجاوز أمره تقديم شهادة عن ميت من لدن حي، وإنما هو رفض للتّصفية التي لحقت الجسد ومخاتلة لما يريده الموت، ورفض لنسيان ذكراه، وتبرير مستمر من جهة أخرى لحضوره، فمن سموا النّسيان نعمة هم حاولوا فقط تبرير الخيانة القسرية لموتاهم، كما يؤكد خيري منصور، لأن هناك من الموتى من لا نجد عوضاً عنهم بين الأحياء. وإلا فكلٌّ من الأحياء والأموات يشتركون في خيانة؛ من بقوا قيد الحياة لمن فقدوا أعزاءهم، والرّحيل بالنّسبة لمن توقفت قلوبهم وأطبقوا شفاههم وأصموا آذانهم أيضاً، وليس عيونهم فقط. فالميت «الحكيم (الذي) يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه، وأن الإنسان في هذا العالم وإن طال فيه لبثه، فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السّماء ثم خفيت، وأنه في دنياه كمبعوث إلى ثغر يحرسه وبلد يسوسه، فيراعي في ذلك ما استرعى، ويفرح ويُسرُّ إذا استدعي، ولا ينكأه خروجه منها»[4]، قد يكون هذا موقف الأحياء أيضاً من الموت، فحياة الميت عندهم تكاد تكون برقاً، لكنه برق لا يجب نسيان سَناه. وموته يجب أن يبقى تمرينا للحي أمام هذه التجربة التي نساق كلنا إليها، فهو التّجربة التي «يجب علينا أن نستعد له، وذلك بتأمله، الأمر الذي سيشكل تمريناً وممارسة مفضلة ومتميزة»[5].

(1) منصف (عبد الحق). أبعاد التّجربة الصّوفية: الحب. الإنصات. الحكاية. (الدّار البيضاء: أفريقيا الشّرق. 2007)، ص: 286.

(2) جاك دريدا، سياسات الصداقة، ص: 91.

(3) أحمد القسطلاني، إرشاد السّاري إلى شرح صحيح البخاري، (القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق)، ط7، ج: 5، ص: 407.

(4) أبو القاسم الرّاغب الأصفهاني، الذّريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق أبو اليزيد العجمي، (المنصورة، دار الوفا، 1987)، ط 3، ص: 336،335.

(5) ميشيل فوكو، تأويل الذّات: دروس ألقيت في «الكوليج دو فرانس» لسنة 1981-1982؛ ترجمة وتقديم وتعليق الزواوي بغورة، (بيروت: دار الطليعة، 2011) ص: 44.

3. المقابر في يوم وليلة الإنسان البغدادي:

يختصر كتاب المقابر والمشاهد الكثير من عادات أهل بغداد، ويرصد لنا جوانب من الحياة الاجتماعية، ويصف لنا، بشكل واع جداً، ذهنيات المجتمع البغدادي في عصره. الشّيء الذي بإمكانه صياغة صورة بانورامية وواضحة عن حياة المجتمع البغدادي من ناحية تمثلاته وهواجسه وآماله، مع اتخاذ الاحتياطات الممكنة والتّحفظات بإزاء منقولات الكتاب لا العقدية[1] ولكن العلمية أيضاً، فأدب المناقب لا يعالج مشاكل بعيدة عن الحياة، بل هو يعتلج بمشاكلها ويفيض بشكل قد يكون زائداً عن بقية أجناس الكتابة بإشكالاتها، فالمادة المناقبية تبقى «وثائق لا غنى عنها لجوانب معينة من التّاريخ، ومناجم لمواد صالحة للاستعمال التّاريخي في جوانب أخرى على أساس نقد يتناول مواقعها»[2]. إن نصوص وحكايا كُتيب ابن أنجب تبقى شواهد حقيقة لذهنيات الفرد البغدادي.

من عادات البغداديين وأعرافهم التي دأبوا عليها مؤَلف ابن أنجب، ووزعوا أيامهم بحسبها، هي تخصيص أيام بعينها لزيارة بعض المقابر والمشاهد، فيذكر ابن أنجب أن البغداديين كانوا يزورون «في عصر كل جمعة، ويبيتون به ليلة السّبت، ويعظ هناك واعظ، وقصده النّاس بالنّذور، وصار من جملة المشاهد المذكورة المزُورة»[3]، أما قبر ابن حنبل فكانت تحيا عنده ليلة النّصف من شعبان[4]، وكان لمشهد عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «ميقات يزار فيه، وكان النّاس يستعدون لزيارته كما يستعدون لزيارة سلمان الفارسي. ويقال: «إنه أحصي في بعض اللّيالي وقد دخل إلى المشهد نيّف وأربعون ألف شمعة. وكان المشهد واسعاً عظيماً»[5]، ومن المقابر «التي كان النّاس يقبلون على زيارتها أيضا مقبرة الشّونيزي الكبير إذ «يقصدها النّاس في كل خميس، ويكثر بها الغلبة والأنيس، وتباع هناك المأكولات، وتعقد الأسواق الدّائرات، خصوصا في أيام الرّبيع إذا كثرت المياه الجارية، واخضرت الرّياض الزّاهية، واعتدل الزّمان، وطاب الأوان»[6]، ويذكر أن جمعاً غفيراً من أهل بغداد كانوا يذهبون إلى مقبرة باب حرب، إذ كان «يقصد هذه المقبرة في كل يوم أربعاء بالزّيارة والتّعظيم جم غفير، وجمعٌ عظيم، وفي

(1) انظر المقابر والمشاهد، ص: 20.

(2) أحمد التوفيق، التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى، ضمن التاريخ وأدب المناقب، الرّباط: منشورات عكاظ، ص: 81.

(3) المقابر والمشاهد، ص: 110.

(4) المصدر نفسه، ص: 47.

(5) المصدر نفسه، ص: 108.

(6) المصدر نفسه، ص: 64 . 65.

ليالي المواسم كليلة رجب، ونصف شعبان، وليلة العيد، يقصدها النّفر العديد، وتشعل عند قبر أحمد مائة من الشّمع منضد، فيكون جمعا محشودا، ووقتا مشهوداً»[1].

يحكي أحد رواة ابن أنجب عن والده أن ضريحاً أصابه الخراب، ولعبت به أيدي اللّصوص والشّطار: «ثم عدت إليه في سنة ثمان عشرة وخمسمائة فرأيت الموضع قد رمّ بخشب التوت. وكان له ميقات يُزار فيه، وكان النّاس يستعدون لزيارته كما يستعدون لزيارة سلمان الفارسي[2]. ثم يعقب والد الرّاوي، من أنه «أحصي في بعض اللّيالي وقد دخل إلى المشهد نيّف وأربعون ألف شمعة. وكان المشهد واسعاً عظيماً»[3]، في وصف لمستلزمات الزّيارة، ومستتبعات الأدب مع الأضرحة، فعند قبر أحمد كانت تشعل «مائة من الشّمع منضّد، فيكون جمعا محشوداً، ووقتاً مشهوداً»[4]. وهناك من الأضرحة من يقصدها النّاس مشاة ويبيتون فيها[5]. وليس أمر الزيارات يدل في كثير من اللحظات على الحزن والشفقة وإنما يكون برغبة في الفرحة والاستجمام إذ يقول ابن أنجب عن أحد المقابر في وصف تستشف منه مشاعر الحبور والسّعادة العارمة: «يكثر بها الغلبة والأنيس»[6]، وعن مشهد المنطقة يقول إنه «يقصدها الشّيعة يوم عيد الغدير، ويكثر النّاس حوله الزّيارة والفرحة»[7].

ترتيب الزّيارة، وتنظيمها أمر قد يتدخل فيها العامل الجغرافي في كثير من المرات، وقد يتقدم بسببه الولي صاحب القبر أو الضّريح بحسب سابقته بين أولياء نفس الحاضرة، أو بسبب عوامل سياسية يُكرسها السّاسة وتسايرها عبر العادة التي سرعان ما تصير قانوناً وتقاليد لا محيد عنها، كما هو الحال مع تنظيم زيارة أولياء مراكش، التي بسبب عوامل سياسية معينة، تم إقصاء أولياء دون أولياء، وتفضيل ولي على آخر في الزّيارة، «فمن البداية يجب إقصاء الأولياء البرابرة لأن الطّواف مخصص لرجال عرب، وإقصاء المشكوك في نسبهم العربي كأبي عصفور (...)، فيصير يوسف بن علي اليمني بدون منافس في محطته (...) أما أبو العباس السّبتي فليس له منافس ليس في منطقته فقط، ولكن بين كل

(1) المصدر نفسه، ص: 50.

(2) المصدر نفسه، ص: 108.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

(4) المصدر نفسه، ص: 50.

(5) المصدر نفسه، ص: 110.

(6) المصدر نفسه، ص: 64.65.

(7) المصدر نفسه، ص: 101.

أوليـاء المدينـة فهـو حاميهـا الأول، ووليهـا المفضـل مـن طـرف الـكل»[1]. يقـول الحضيكـي فـي رحلتـه: «قـد رتّـب لهـم أهـل مراكـش مـزارا صبيحـة يـوم الجمعـة، يخـرج لزيارتهـم الرّجـال والنسـاء والصبيـان، ويـرون لزيارتهـم بركـة عظيمـة، وفرجـا قريبـا عنـد نـزول الشّـدائد بهـم، وكانـوا يستسـقون بهـم فيُسـقون، (...) وشـوهد ذلـك وعويـن»[2].

رغـم المخاطـر التـي كانـت تحيـق بالإنسـان البغـدادي، مخاطـر السّياسـة والطّبيعـة فـإن الأضرحـة والمقابـر والمشـاهد عنـده تغـدو فـي كتـاب المقابـر والمشـاهد لا مكانـاً للأمـل فـي ملاقاة المـوت والتّمسـح بهـا، أو مكانـاً للتعبيـر عـن الحـزن وسـيادة الاسـتياء مـن فقـدان مـن هـو أولـى بالحيـاة والوقـوف إلـى جانـب الأحيـاء ومناصرتهـم، ولكـن يصيـر مصـدر فـرح ومقصـد سـياحة واسـتجمام كبيريـن، بحيـث يصيـر المـكان المفضـل للنسـاء والصّبيان لقضـاء أحسـن الأوقـات، إنما يبقـى المتنفس الأوحـد، إنـه بمقـدار ما قـد يخترق الحزن حدث الزيـارة يخرقه من جهـة ثانية الفرح والحبـور، فيسـتوي مـن جديـد المـوت وتسـتجد دفقـات الحيـاة، وهـذا ما عبّر عنه بشـكل هـو الأكثر تلخيصـاً هراقليطـس بالقـول: «ديونيسـوس وهاديـس سيّان».

ولأهميـة زيـارة المقابـر والمشـاهد فـي حياة الإنسـان المسـلم في العصـر الوسـيط، لا فـي بغداد وحدهـا، فقـد أُلفـت فـي هذا كتـب ومنظومات، فمحمـد ابن الزّيات ألـف لأهل القاهرة مثـلاً الكواكب السّـيارة فـي ترتيـب الزّيـارة فـي القرافتيـن الكبـرى والصغـرى، ليكـون الأمر شـبيها بكتاب إرشـاد سـياحي، يتـم فيـه تحديـد يـوم الانطلاق أو سـاعاته ومـا يجب عمله ومـا يجب تركـه. إن الأمر انتقل إلـى محـاول تنظيـم طقوس الاحتفـاء بالأموات، وبصياغة دسـاتير ينتظم فيها فعل وسـلوك الأحياء، غيـر أنـه قـد يتـم الخـروج عـن برنامـج الزيـارات هـذا، فينتـج مـن هـذه الزّيـارت مناكـر عديـدة ـ بحسـب فقهـاء كل عصـر ـ اسـتوجبت الكثيـر مـن النّقـد. يقول ابن الحـاجّ، وهو يوجه نقده إلى عمل جحافـل النّسـاء الزّائـرات، يقـول: «ثـم انظـر رحمنـا الله وإيّاك إلى ما قرره النّسـاء في هـذه الزّيـارة التـي ابتدعنهـا لأنفسـهن فإنهـن جعلـن لكل مشـهد يومـا معلوما في الجمعـة حتى أتين علـى أكثر أيام الجمعـة ليجـدن السّـبيل إلـى وصولهـن إلـى مقاصدهـن الذميمة فـي أكثر الأيـام، فجعلن يـوم الاثنين للسـيد الحسـين ـرضـي الله عنـه-، ويـوم الثّلاثـاء والسّـبت للسـيدة نفيسـة، ويـوم الخميـس، والجمعة للقرافـة لزيـارة الشـافعي وغيـره لأمواتهن»[3]، ليؤكد هـذا الأمر يتجاوز أن تتحكم فيه كتب مرشـدة أو أرجـوزات يضعهـا البعـض، إنهـا الكثـرة التـي تلـد هرجها الذي يغلـب أي محاولة فـي التنظيم.

(1) حسن جلاب، الحركة الصّوفية بمراكش وأثرها في الأدب (1)، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1994، ص: 179.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي، الرّحلة الحجازية، ضبط وتعليق عبد العالي المدبر، (الرّباط، الرّابطة المحمدية للعلماء، 1432هـ/2011م)، ط 1، ص: 67.

(3) أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي، المدخل لابن الحاج، مكتبة دار التراث، القاهرة: ص: 269.

ويستشف من هذا النقد المتكرر أنه قد كانت للنساء الحرية التّامة والكاملة في زيارة الأضرحة، إذ كانت المتنفس الكبير وربما الوحيد لهن، حتى إن هذا أثار استهجان ابن الحاجّ، فيقول عن جملة المنكرات التي تعرفها الزيارات: «فمن ذلك ما يفعله بعض النّساء في زيارة القبور، وفي ركوبهن على الدّواب في الذّهاب والرّجوع، وفي مس المكاري (صاحب الحمار) لهن وتحضينه للمرأة في إركابها، وإنزالها وحين مضيها يجعل يده على فخذها، وتجعل يدها على كتفه مع أن يدها ومعصمها مكشوفان لا ستر عليهما سيّما مع ما ينضاف إلى ذلك من الخواتم، والأساور من الذهب، أو الفضة، أو هما معا مع الخضاب في الغالب وتقصد مع ذلك إظهار ذلك كله»[1]، بل والأمر خرج عن كل هذا إلى حرية أكبر مما نتوقع، تتمثل في «مشيهن باللّيل مع الرّجال في زيارة القبور مع كثرة الخلوات هناك وكثرة الدّور المتيسرة، وكشفهن لوجوههن وغيرها حتى كأنهن مع أزواجهن خاليات في بيتهن، وينضم إلى ذلك محادثتهن مع الرّجال الأجانب ومزحهن وملاعبتهن وكثرة الضّحك مع الغناء في موضع الخشوع، والاعتبار، والذّل، فإن هذا الموضع أول منزل من منازل الآخرة، فهو جدير بالحزن، والخوف ضد ما يفعلونه .وقد ورد في الحديث أنه عليه الصّلاة والسّلام قال: «إن الله يكره لكم ثلاثاً: العبث في الصّلاة، والرّفث في الصّيام، والضّحك عند المقابر»، فيحق لمن مصيره إلى هذا عدم اللّهو، واللّعب، وخروجهن على هذه الأحوال لو كان بالنهار لخيف عليهن من المفسدة الكبرى فكيف به ليلاً، وينضاف إلى ذلك ما أحدثوه من الوعاظ على المنابر، والكراسي، والمحدثين من القصاص بين المقابر في اللّيالي المقمرة وغيرها، واجتماع الرّجال، والنّساء جميعا مختلطين، وكذلك القراء الذين يقرؤون القرآن بالتّرجيع، والزّيادة، والنقصان في كتاب الله عز وجل ورفع الأصوات الخارجة عن حد السّمت، والوقار، والتّمطيط، والمد في غير موضعه وتخفيف المشدد وعكسه، وترتيبها على ترتيب هنوك الغناء، والطّرائق التي أحدثوها وغير ذلك مما هو معلوم مشاهد، وذلك كله ممنوع وسواء كان الزّوار رجالاً، أو نساء فكل ذلك ممنوع لما فيه من المفاسد»[2].

4. الموتى ومنشآتهم:

لا نستغرب عدم وجود فواصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى في الخلاصات التي نخرج بها من حكايا ومنقولات كتاب المقابر والمشاهد، فتشييد العمران والإفراط فيه حد البذخ، يصير شيئاً عادياً، بل ضرورياً في الأبنية التي تحوي جثامين الأولياء، وبشكل هو الأكثر دهاءً يمسخون فكرة غيابه ليجعلوها حضوراً غير عادي بالمرة، يتغلغل وجوده داخل جماعتهم، وبشكل هو الأكثر مهابة حتى من الأحياء أنفسهم، يُبالغون في تقديره وتوقيره، بجعل بنائه

(1) المصدر نفسه، ص: 267.

(2) المصدر نفسه، ص: 268.

الـذي يسـكنه آيـة فـي التّشـييد والتّزاويـق، حتـى ليبـدو مـوت الولـي بدايـة لأداء ضريبـة لـه عـن غيابـه، فهنـاك ضرائـب ومكـوس تقدم لمن هو على قيد الحياة ساسـة وولاة بشـكل إجبـاري، وهناك ضرائـب أخـرى تقدم بشـكل اختيـاري ينتقـي فيـه الواهـب من يهبـه ما جادت به نفسـه مـن الأولياء الذيـن تعـج بهـم بغـداد والمـدن المسـلمة، ولا ينتظـر أن يوضـع الولـي الميـت أو الشـخص المهيـب الـذي فقـد روحـه فـي قبـر عـادي، فـي حفـرة مغطـاة بأتربـة وعنـد رأسـه توضـع شـاهدة قبـر تـدل علـى هويتـه العلميـة والأسـرية، وإنمـا الأمـر يتجـاوز كل الحدود إلـى التفنن في التشـييد حد يتجاوز قصـور الأحياء أنفسـهم.

المـوت الـذي يشـتهر بأنـه هـادم اللّـذات والحضـارات حـد الإجمـاع التّـام حـول هـذا، يصيـر فـي حكايـا ومرويـات كتـاب المقابـر والمشـاهد صانـع وبـان الحضـارة وناحـت ثقافـة بأكملهـا، إذ يكـون الميـت سـبباً مباشـراً فـي الأبنيـة الضّخمـة وفـي المشـاريع الكبيـرة، ومـا يسـتتبع ذلـك مـن نمـاء اقتصـادي تـذره الزّيـارات، وتفـرض الأخيـرة معهـا اسـتحداث مهـن جديـدة توقض حماسـتها وراهنيتهـا حاجيـات الزّائريـن، حيـث تصيـر القرية البلقع المرميـة في القفار محط زيـارات لا تعد؛ بسـبب قبـر لا يُعـرف حتـى صاحبـه، أو بالأحـرى لـم تتمـم كتابـة اسـمه علـى شـاهدة القبـر ليكتمـل تحديـد هُويّتـه، فقبـر بسـيط وقديـم بقريـة، سـيحيلها فجـأة إلـى كـورة عظيمـة[1]، وذلـك ببسـاطة لأن شـيخاً «بنـاه بالآجـر والجـصّ، وزوّقـه، وزخرفـه، وجعـل علـى القبـر ملبناً مـن الخشـب المنقوش، وجعـل عليـه طاسـات مـن فضّـة، وعلق فـي الموضع قناديل مـن الصّفر، وبنى حوله رقعة واسـعة، وعمـل فيهـا سـقاية، وكسـاه بفـرش الشّـتاء والصّيـف»[2]، لينسـاق النّـاس بسـرعة إليـه وليقصـدوه «مشـاة وركبانـاً فـي عصـر كل جمعـة، ويبيتون به ليلة السّـبت، ويعـظ هناك واعظ، وقصـده النّاس بالنّـذور، وصـار مـن جملـة المشـاهد المذكورة المـزورة.»[3]. ليذكرنـا ما حلّ به وبغيـره من القبور التـي قـد لا يعـرف أصحابهـا، لكـن يعتقد في فاعليتها وبركتهـا، بما حلّ بقبر الشـيخ مجيب رواية أم النّذور، فحتى وإن نُسـي اسـم الميت وطرفاً من سـيرته، فإنه سيسـتعاد ولو باسـمه الناقص وسـيرته غيـر الموجـودة أصـلاً أو النّاقصـة، فرغـم ألا أحـد يعرف الشّـيخ «مجيب»، فالقصـص التي تروى عنـه كثيـرة لا تنتهـي والنّعـم التـي تعيشـها سـاكنة قريـة أم النّـذور هـي من بـركات الرّجـل، الذي لا يعـرف لـه أصـلٌ أصـلاً، غيـر أنـه رجلٌ تقي ولـه بـركات لا تحصى[4].

(1) المقابر والمشاهد، ص: 110. (الهامش)

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

(3) المصدر نفسه، ص: 110.

(4) منيف، عبد الرّحمن، أم النّذور، (الدّار البيضاء: المؤسسة العَربيّة للدراسات والنّشر، المركز الثّقافي العربي) الطّبعة الأولى، 2005، ص: 10.

بالتّأكيد إن تجاهل الموت والحياة، على حد سواء، هو لدى الولي شيء، بالطّبع، غاية في الأهمية في برنامجه الحياتي وفي طريقه التعبدية، فالأولياء حسب أبي الحسن المراكشي «مراقبون وقوع الأجل، والموت بين أعينهم لا يزول، هانت عليهم المصائب، لا يبالون بالدنيا أقبلت أو أدبرت، كأنهم في الدّنيا عابر سبيل في كل نفس يتجهزون للرحيل»[1]، وبالتأكيد أن أغلب أصحاب الأضرحة والمزارات والمراقد المشهورة كانوا من الأئمة الزّاهدين، المفرطي الزهد والابتعاد عن نداء المتع وتغول النّزوات، إنهم ممن قضوا حياتهم بعيداً عن ملذات الحياة، ماتوا بعيداً عن المتع وهاربين منها، غير أنه سرعان ما يتم التّحايل على رغباتهم الزّهدية ونموذجهم الصّوفي هذا، بجعل قبورهم مكاناً لما لم يحظوا به في حياتهم، ربما لأن «الطّريق الوحيد للتوصل إلى الثراء والقوة الرّوحيين هو ألا يملك المرء شيئا وأن يجعل ذاته مفتوحة و«فارغة» «[2]، فحياة الميت التي سبقت موته بالإضافة إلى طريقة الميتة التي عرفتها نهايته تصنع كاريزما خاصة به، تغير طريقة الاهتمام به، فإما أن تكون العلاقة عادية جداً كباقي الموتى الآخرين، وإلا تصير إلى ما صارت إليه في حكايا علي بن أنجب، والميتة لا تشبه أي ميتة، حتى لو شابهتها في المأساوية، فحتى في بؤسها قد يُجعل منها ميتة غير كريمة لاستنزاف قوتها وتبخيس قيمتها. يقول روسو: «قضى سُقرَاط نحبه متفلسفاً منشرحاً محاطاً بأحبّائه، فمات أحلى ميتة يتمناها مخلوق. لفظ عيسى آخر أنفاسه تحت التّنكيل والشّتم والازدراء ولعنة جمهور شعبه، فمات أبشع ميتة يخشاها مخلوق. يتناول سُقرَاط السّم من يد خادم يبكي، فيباركه. يتلقى عيسى من جلّاديه أفظع أشكال التّنكيل، فيدعو بالعفو على أكثرهم قساوة. الحق هو أن سُقرَاط عاش عيشة ومات ميتة حكيم، في حين أن عيسى عاش عيشة ومات ميتة إله»[3]. السّيد المسيح كان يعرف ما يقول، وكان يعرف ما يفعل، فهو نفسه من يقول: «من يود إنقاذ حياته سيفقدها، لكن الذي سيفقدها بسببي سينقذها»، فمن جهته فقد حياته من أجل الآخرين. الأمر مع القبر أي المرقد الدنيوي يتعلق بوعد إلهي إذن، يقول تعالى: «تِلْكَ الدَّار الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[4]، القبر مثوى الميت في الأرض هو بداية السّكن الأخروي الموعود، لهذا يجب أن يكون بداية الثواب واستئناف للحياة الموعودة.

(1) عبد الحق البادسي، المقصد الشّريف والمنزع اللّطيف في التّعريف بصلحاء الرّيف، تحقيق سعيد أعراب، (الرّباط: المطبعة الملكية، 1414-1993)، ص: 22.

(2) إيريك فروم، «التّملك والكينونة»، ترجمة: سبيلا محمد، فكر ونقد: ثقافية شهرية، ع 3، ص: 103.

(3) جون جاك روسو، دين الفطرة، ترجمة عبد الله العروي، (الدّار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص: 119.120.

(4) القصص، الآية (83).

تقول فرمينا داثا بطلة الحب في زمن الكوليرا بإصرار منها على فكرتها الرّيفية جداً «أن الموتى لا ينتمون إلى أحد سوى إلى عائلاتهم»[1]، أي أن الأبناء يفعلون بجثامين ذويهم ما يرون أنه الأصلح لأرواحهم، والأقرب لما كان يتمنونه لأنفسهم، فلا أحد يمكن أن يعرف مصلحة الميت غير أقاربه، غير أن الأمر هنا يتجاوز هذا ليصير مصير القبر بيد رجل قد لا يعرف صاحب القبر أصلاً، من قريب أو بعيد، وقد يصير مستقبله بيد رؤيا يراها رجل في أحد مناماته عنه[2]، وسرعان ما تنمو القصص عنه، ومعها تستحدث فجأة منشآت ومرافق داخله وبجانبه، لتغدو جوانبه مخطط مدينة مستقبلية أو حتى كورة كبيرة تُشد لها الرّحال وتقصدها الرّكبان. فلطالما كان قبر الولي عِلّة مباشرة لتأسيس المدن، يبدأ الأمر قبراً صغيراً، غير معروف بالمرة، فيصير قبّة، وبعدها ضريحاً ثم تَكية متوسط القد والحال فمزاراً، فكورة عظيمة، فمدينة. فالمقابر هي عند الإنسان البغدادي تشبه تماماً البَانثيون (Panthéon) عند اليونان، أو مدافن عظماء الأمة عند أيّ فرنسي، فالأعلام من أهل العلم والزّهد بالكثرة مما لا يمكن حصره في المقبرة الواحدة، لهذا يكثر عند ابن أنجب ختمه القول عن أحد المقابر «وقد دفن بها خلق كثير من الفقهاء والصّالحين والأولياء الزّاهدين»[3]، أو القول عن أحد الأضرحة «وبالقرب منه وحوله قبور جماعة من أئمة الدّين، وعلماء المسلمين، والعباد الصّالحين»[4]، أو قوله: «وقد دفن بها كبار العلماء وأرباب الصّلاح والزّهادة والمجاهدة والعبادة الجمّ الغفير، والعلم الكثير»[5].

على الرغم من أن الدين كان «أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير القصد»[6]، فحين استأذن الناس عمر بن الخطاب «في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال «افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدّولة»، وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر قالوا: «وما القدر؟» قال: «لا يقربكم من السّرف ولا يخرجكم عن القصد»[7]، على الرغم من كل وصايا الزّهد في التّفنن في التّشييد واستقباح التّعالي في البنيان، فإنه كانت

(1) ينظر غابرييل غارسيا ماركيز، الحب في زمن الكوليرا، ترجمة صالح علماني، (بيروت: دار المدى، مكتبة نوبل، 1991)، ص: 49.

(2) المقابر والمشاهد، ص: 88.

(3) المقابر والمشاهد، ص: 72.73.

(4) المصدر نفسه، ص: 75.

(5) المصدر نفسه، ص: 91.

(6) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، حققها وقدم لها وعلق عليها عبد السّلام الشدادي، (تمارة: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005) ج.5، ص.80.

(7) المصدر نفسه، ص: 80.

هنـاك دومـا رغبـة جموحـة فـي الالتفاف حول هـذه الوصـايا، خاصـة مـع أناس لطالما اسـتقبحوا هذا الفعـل هـم أنفسـهم، ورفضـوه، بـل جعلـوا منـه شـيئا يتقربون به مـن حقيقـة الدّيـن، فالتّشـييد والبناء الجيـد علـى قبـور مـن يرونهـم أقـرب النـاس إلى عالـم الصّـلاح ودوائر الولايـة هو أمـر يرونه من حقيقـة الدّيـن، وربمـا عـن طريق طريقة الاعتناء بالتّشـييد يقيسـون درجات إيمانهـم، حتى لو أن ابن خلـدون ينسـب مـا حصـل مـن الاعتناء بمظاهـر التّباهي بالبناء إلى بعـد العهد بالدّيـن وغلبت طبيعة الملـك والتـرف[1]، بالإضافـة إلـى «مخالطـة العـرب لأمة الفـرس وأخذهـم عنهم الصنائـع والمباني ودعتهـم إليهـا أحوال الدّعـة والترف فحينئذ شـيدوا المبانـي والمصانع.»[2].

لقـد كانـت الأضرحـة والمشـاهد والمراقد دومـاً عبارة عن ملاجـئ كبيرة، للفقـراء والمحتاجين والأرامـل وحتـى علية القـوم، بشـكل يمكـن عدّهـا أقـدم المنظمـات غيـر الحكوميـة للتضامـن الاجتماعـي والتّكافـل المدنـي، يقـول الحضيكـي مثـلاً عـن أبـي العبـاس السّـبتي وضريحـه: «كان رضـي الله عنـه يحـب المسـاكين، ويجـري عليهـم حيـاً وميتـاً، تـرى النـاس رجـالاً ونسـاءً، صغـاراً وكبـاراً، عاكفيـن علـى قبـره بـلا عـدد، ورزقهـم يأتيهـم مـن كل ناحيـة فـي رخـاء وغـلاءً، والنّـاس فـي القحـط يموتـون جوعـاً، والضّعفـاء والأرامـل والعُمـيُ علـى قبـره يأكلـون ويشـربون من رزق الله تعالـى، وذلـك بركـة الشّـيخ»[3]. إن الولـي باعتبـاره حارسـاً غيـوراً على كل من لاذ به؛ يسـتحق -حقـاً- أن يكـون قبـره آيـة معماريـة تليـق بالمهـام التي لا يفلح غيـره في إنجازها، من سـقوط المطر إلـى إطعـام الفقيـر والجائـع المقتـر. وفي ضريحه يجـد الفرد والجماعـة من يواسـيها، ومن يطبطب على اسـتياءاتها.

إلـى هنـا ويلاحـظ أنّ الإنسـان البغدادي كمـا كان ارتباطـه فـي حياتـه بأحـد الأضرحـة أو المـزارات يختـار لنفسـه كمـكان ومسـكن لـه بعـد المـوت قـرب أحـد المقامـات القبورية التـي ارتبط بهـا فـي حياتـه، فكمـا كان الاحتمـاء بـه حيـاً يمكـن الاحتمـاء بـه والالتجـاء إليـه فـي حالـة المـوت، بمـا فـي ذلـك مـن يعـدّه النّـاس أحـد الأوليـاء فـي حياتـه كمـا فـي مماتـه، فعبد الله بـن أحمد بـن حنبل اختـار الدّفـن بمقبـرة بـاب التّبـن علـى الدّفـن قـرب والـده. وقـال: «قد صـح عنـدي أن بالقطيعـة نبياً مدفونـاً، فـلأن أكـون فـي جـوار نبـي أحـبّ إلـيّ مـن أن أكـون فـي جـوار أبـي»[4]. رغـم مـا يتداولـه أهـل بغـداد مـن بركـة الدّفـن بجانـب مدفـن قبـر الإمام أحمـد أي والد عبـد الله بن أحمد بـن حنبل (ت 290 ه). وينقـل ابـن أنجـب عـن أحدهـم قولـه: «لمـا توفيـت أم ولـدي رأيتهـا فـي النّوم فقلـت: «إلى

(1) المصدر نفسه، ص: 80.

(2) المصدر نفسه، ص: 80.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي، الرّحلة الحجازية، ص: 67.

(4) المصدر نفسه، ص: 50.

مـا صـرت؟»، قالـت: «إلـى كل خيـر. فـي كل ليلة دمعـة ينزل على أحمـد رحمة تعمنـا»[1]. ومقبرة البيمارسـتان العضـدي كان «يرغـب فـي الدّفـن فيهـا»[2].

ويحـدث أن يتـم الانبهـار بمقابـر الموتـى، إلـى درجـة أن تطلـب الزّوجـة مـن زوجها أن ينشـئ لهـا مقبـرة تليـق بهـا، وبمنزلتهـا عند زوجهـا، فخاتون زوجـة الإمام النّاصـر ولدى زيارتها لمشـهد عـون ومعيـن ولـدي علـيّ بـن أبـي طالـب علـى دجلـة. لـم تتمالك نفسـها بـأن سـألت الإمـام النّاصر زوجهـا بـأن يبنـي لهـا تربـة هنـاك يدفنهـا فيهـا إذا ماتـت، ورغـم تطيـره من ذلـك، فقد ألحـت عليه، فمـا كان منـه إلا إصـدار أوامـره إنشـاء تربـة فـي الموضـع المذكـور، فـ «وقـع الشّـروع فـي حفـر الأسـاس، وجمعـت الآلات مـن جميـع الجهـات، وشـرع فـي بنائهـا بالجـصّ والآجـر المحكـوك بعد أن دك أساسـها، فجـاء كالرّصـاص المـذاب، والنّحاس المسـبوك، فلـم يصعد بناؤهـا إلاّ مقدار أذرع يسـيرة حتـى توفيـت فـي رجـب مـن السّـنة المذكـورة، ثـم دفنـت بهـا. وهي على هـذه الصّـورة، ولم تخـرج السّـنة إلاّ وقـد كملـت عمارتهـا، فجاءت مشـرقة السّـناء»[3].

وقـد كانـت تصـرف علـى هـذه المقابـر والمراقد الأمـوال الطّائلـة، والإمكانـات الماديـة الكبيرة فتجمـع لهـا الآلات، ويؤتـى لهـا بالبنائيـن، وينقـل إليها الجصّ والحجـارة، ويحرق لهـا الآجر الكثير المقـدار، ويجمـع لهـا الصّنـاع والفعلـة[4]، لتصيـر «كجبـال القفـار، وعليهـا شـرفات بطـول فنائهـا أحسـن من الحلي المخرم، والوشـي المدرهم، وإزاء هذه المنشـأة رواق باد له شـبابيك مشـرفة على دجلـة وجسـرها، ووراء ذلـك بسـتان ذو روض مفـوف الأزهـار، ونـور مثـل الدّرهـم والدّينـار. فيه مـن أنـواع الشّـجر والنّخـل مـا يـروق النّظـر، ويأتي بأنـواع الثّمـر، وقد فرشـت أرضـه بالرّياحين، والبهـار والنّسـرين، فهـو نزهـة العيون، وفرحة القلـب المحزون، فجاءت نمـوذج الجنان لم يعوزها سـوى الحـور والولـدان»[5]. الأمـر إذن يتعلق بمشـاريع ضخمـة وعملاقة تصرف إمكانيـات الدّولة وطـرف صالح مـن تمويـلات النّاس.

يطيـب لابـن أنجـب أن يُطنـب فـي وصـف سـائر جوانـب المـزارات والمقابـر مـن الدّاخـل والخـارج، وصفـاً يحـاول فيـه أن يكـون أكثـر دقـة فـي تحديـد الأشـكال والألـوان وطريقـة السّـبك والتّشـييد وتحديـد نـوع التزاويـق والمكتوبات على الجـدران والأبواب، فيقول عن المشـهد الكاظمي المنسـوب إلـى موسـى بـن جعفـر الصّـادق: «وعليهمـا ملبنـان مـن خشـب السّـاج حسـن الصّنعـة،

(1) المصدر نفسه، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 62.

(3) المصدر نفسه، ص: 145.

(4) المصدر نفسه، ص: 133.

(5) المصدر نفسه، ص: 133.

وفوقها ضبات الفضة، وطاسات الذّهب، وعليهما قبتان من خشب بديعتا الصّنعة. وفي سقف الموضع قناديل كثيرة من الذّهب، والفضة، والبلور، وغير ذلك. وهو مفروش بفاخر كسوة الشّتاء والصّيف، وعلى حيطانه ستور الدّيباج والحرير، وفاخر الدَّبيقي، وفيه الأواوين المتقابلة حسناً وبهاء، وبهجة وسناء، ويطيف بالمشهد تُرَبُ الأكابر والأعيان، وصدور الدّول ورؤساء الزّمان. وهي مبنية بناء القصور، تضحك بالبهجة والسرور، يقصدها أهلها في أوان الزّيارات، وأوقات المواسم والعبادات. وحولها دور القاطنين هناك من العلويين وغيرهم من الواردين، ويحيط بالموضع سور حصين جديد، يغلق عليه بابان من حديد. ويؤتى إلى الموضع بالصّدقات، والنّذور من الذّهب، والفضة، والثّياب الفاخرة، واللّؤلؤ، والجوهر، وأنواع الطّيب، والشّمع الكثير. وللمشهد نقيب، وبواب، وكتاب.»[1].

إنها أبنية بالغة الثّراء، إنها محل للقداسة، محل قد يحاوَل فيه بناء منزل يشبه البيوت التي في الجنة، لذا تحضر قناديل الذّهب وطاسات الفضة واللآلئ والجواهر وأنواع الطّيب كما يتكرر على ذكر عليّ بن أنجب، نعم إنها بيوت على شاكلة ما في الجنّة، فبغداد نفسها اختير لها أول أمرها اسم للجنة؛ دار السّلام. خاصة إذا ما علمنا أنه في هذه الفترة كان هناك من يحاول أن يبني لأتباعه لا ضريحاً أو مزاراً يشبه بيوت أهل الجنة، وإنما سعى لبناء مدينة متكاملة المرافق والمصالح على شاكلة الجنّة نفسها، أو على الأقل نموذجاً مصغراً لها في الحياة الدّنيا، كالتي في نصوصنا المقدسة، كما هي حالة الحسن بن الصّبّاح مُنَظّر فرقة الحشّاشين الإسماعيلية، وهي المدينة/ الجنّة التي حكي لنا عنها «ماركو بولو» من أن الحسن كان يود من خلالها أن يعطي لمريديه صورة مصغرة عن الجنّة الكبرى، إذ أجرى بها أنهار عسل ولبن مصفى، وجعل فيها جواري وحدائق معروشة وغير معروشة، حتى تهون أمامهم الحياة، وتصير عملياتهم الفدائية طريقاً نحو الجنة.

المشاهد والمقابر هنا في كتاب ابن أنجب بتزاويقها وأوانيها الخزفية والفضية، وأفرشة وأغطية الأضرحة الشّتوية والصّيفية تعبير من جهة أعمق عن تلاوين المعتقدات والنّحل المختلفة التي ميزت بغداد، والطّرف المختلفة والعديدة في التّعبير عن التّعلق بالأسماء والشّخوص المؤثرة في الحياة اليومية للبغداديين، ليصير كل حَجَرٍ في مشهد أو ضريح أو مرقد هو في الحقيقة صفحة من صفحات الفكر وهواجس الذّهنية البغدادية وأساطيرها المؤسسة لليومي والمعيش، وصفحة لتطور فنّها وسبباً لتفسير هذا التّطور، كما تبقى صفحة قد تضم مجموع معارف الإنسان العراقي المختلفة من البناء حتى الشّعر مروراً بالمعتقد والأعراف والتّقاليد الموروث الشفهي، فالأشكال التّعبيرية المختلفة الموصوفة من لدن ابن أنجب من الزّركشات المزهوة إنما يشيع من خلالها من نظام ووحدة هو بالقدر ما يشع في أعماقها من

(1) المصدر نفسه، ص: 97، 98.

الاختلاف السّائد آنذاك، إذ الأمر يشبه تماما جذع الشّجرة ثابت الذي لا يتغير، والأوراق لا لون موحد لها.

5. حتى مساكن الأموات يلحقها الخراب!:

يُعنون العلامة عبد الرحمن بن خلدون أحد فصول مقدمته بـ «في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل»[1]، والسّبب في ذلك ـ بحسب ـ قاضي المالكية في مصر هو كون «البداوة والبُعد عن الصّنائع» اللّتين تطبعان طبع العربي، إلى جانب قلة مراعاة العربي «لحسن الاختيار في اختطاط المدن (...) في المكان وطيب الهواء. والمياه والمزارع والمراعي»[2]، فبالتّفاوت في هذا «تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد (...) وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطها إلا مراعي إبِلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن»[3].

يصدر ابن خلدون حكمه فيما سبق عن المدن التي يشيّدها الأحياء، الأضرحة هي الأخرى يحكمها ما يحكم المدن العامرة من قوانين العمران والخراب بنزوح أهلها المفاجئ عنها، ونسيانها، لتصير رسوما وأطلالاً بلقعاً بعدما كانت عامرة بالحجاج والزائرين، فبينما يسترسل ابن أنجب في وصف المشهد الكاظمي المنسوب إلى موسى بن جعفر الصّادق، فإنه يختم أوصافه المتفتقة عن جمال هذا المزار بأن يقول «وكان هذا المشهد قد وقع فيه حريق في الأيام الظاهرية وذلك في ليلة تاسع المحرم سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فأتى على القبتين والضّريحين المقدسين»[4]، إذ لم يكن تاريخ تلك الأبنية القدسية بتاريخ بناء وتشييد فقط، بل وتاريخ هدم وسرقة وخراب ونيران تأتي على القباب والأعمدة والأفرشة؛ إما بافتعال فاعل يكون، أو بما يطرأ عادة من مصائب الدّهر التي لا يعرف المرء من أين تنسل ولا من أين تأتي؟

حتى وإن كان ضريح الولي مكاناً للتوقير والتّقدير الكبير، غير أنه سرعان ما نجد من لا يجد في نفسه ذلك الاحترام المرجو للأموات ولمجالهم الحيوي، فيَسرق ما وهبه الأحياء لميتهم،

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج: 5، ص: 82.

(2) المصدر نفسه، ص: 82.

(3) المصدر نفسه، ج: 5، ص: 82.

(4) المقابر والمشاهد، ص: 98.

وكأن السّارق/ الحي الأولى بالإحسان من الولي/ الميت، إذ لا مجال للمفاضلة بين من ارتمى في حضن عالم الفساد أمام من هم على قيد الحياة. ينقل ابن أنجب عما حكاه له والده عن أحد الأضرحة إذ يقول: «شاهدت أنا الضّريح قد قُلع أكثره، وسُرق، وأُخذت الضّبات، وكان وزنُ كل ضبة عشرةَ أرطال، والضّريح ساج، والضّبات شِبهٌ، فغمني ذلك»[1]. ويزيد فيقول: «وقد خَربَ ذلك الموضعُ، وعفا أثره حتى لا يوجد في هذا الموضع إلى الشّط غيرُ هذا المشهد المذكور، وهو خراب»[2]، لكن تتم عملية إصلاحه والتصالح معه من جديد فيقول: «ثم عدت إليه في سنة ثمانَ عشرةَ وخمسمائةٍ فرأيت الموضع قد رم بخشب التّوت. وكان له ميقات يزار فيه، وكان النّاس يستعدون لزيارته كما يستعدون لزيارة سلمان الفارسي»[3]. وقد يصير موقع الضريح أو المقبرة إصطبلاً للخيول والجند[4] أو تلاً تُلقى فيه الأتربة التي يأتي بها النّاس من دورهم وأفنيتهم[5].

وكما تأتي على مساكن الأحياء لحظات يفقدون فيها راحتهم باجتراء بعض الأحياء عليهم، فالمقابر سرعان ما يأتي عليها هي الأخرى ما يدخل الفساد على هناءة صاحب القبر وإزعاج جثته التي دخلت دورة الإفساد، وهو ما نبهت عليه نُصوص الشريعة، فلا يجوز حتى الاقتراب من قبور الموتى، بما في ذلك الجلوس عليها، احتراماً لساكن القبر. يقول عليه الصّلاة والسّلام: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر»[6]، ليصير الاجتراء على ممتلكات الميت! أمراً هو الأكثر اجتراء ووقاحة، فالقبر تبقى له قدسيته في المخيال الجمعي وكذا الدّيني، قدسية لا يمكن معها من الاجتراء على حرمته. القدسية التي يجب أن تكون لراحة الميت وهدأته التي لا يجب الإضرار بها أو الإخلال بشروطها. يروي ابن رشد عن عمرو بن حزم قال: «رآني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على قبر»، فقال: «انزل عن القبر، لا تؤذي صاحب القبر، ولا يؤذيك»[7]، ويقول التّعارجي عن القبر «الذي وجد تزليجه متساويا مع الأرض قديماً كان أو حادثاً فلا يمس بوجه، لأن الميت يتأذى بما يتأذى به الحي»[8].

(1) المصدر نفسه، ص: 108.

(2) المصدر نفسه، ص: 108.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

(4) المصدر نفسه، ص: 85. 80.

(5) المصدر نفسه، ص: 86.

(6) رواه مُسلم.

(7) ابن رشد، أبو الوليد، بدَايَةُ المُجتَهِد، باب الدّفن، ج: 1، ص: 559.

(8) التّعارجي، الإعلام، ج: 8، ص: 267.

لا يعطينا ابن أنجب بالضّبط أسباب الخراب والسّرقات التي لحقت المشاهد والأضرحة، إذ أسباب الخراب الذي يلحق مساكنهم تدخل فيه أسباب كثيرة من بينها قد يكون القبر في الأصل مكاناً وساحة أخرى لتصريف الصّراع الدنيوي والرّغبات في التّصفية والاستحواذ التّام على الأرض ومعها السّاحة الثّقافية والعقيدية التي كان الميت إما طرفاً فيها، أو تحول بعد موته إلى طرف مهم فيها وذلك بالرغم منه، فكما أن هناك مجالاً للتباري المعرفي بين أصحاب أنواع معرفية وعقيدية متعددة في الحياة يستمر هذا التباري حتى بعد الموت، فالصّراع الخفي الذي كان الصوفي الكبير بشر الحافي والفقيه الحنبلي ابن حنبل بنفسه يمتد إلى المقبرة، فعوض أن يبقى اسم بشر بن الحارث الحافي اسماً لها، يزاح ويعوض باسم ندّه ابن حنبل فور دفن الأخير فيها[1]، فسرعان ما ينتقل مشعل الصّراع إلى الأتباع ممن بقوا على الحياة، فيتطور إلى محاولة الفتك بقبر الميت، ليمحو أي شاهد ودليل يدل عليه.

هذا الإضرار بمساكن الموتى، هو ما دفع كما تقول كثير من حكايا كتاب المقابر والمشاهد إلى نقل جثامين الأموات إلى مناطق يستشف منها أنها الأكثر أمناً والأسلم، وغالباً ما تكون جثامين لأمراء، فالخوف على هؤلاء يكون أكبر في وسط سياسي امتاز بالاضطراب الدّائم وعدم الاستقرار، فنجد أنه غالباً ما يتم نقل جثامينهم إلى الرّصافة التي يصفها ابن أنجب بما يجعلها في نظر القارئ أكثر أماناً وحرصاً، فهي عظيمة الرّقعة، سامقة البنيان[2]، «لها دهليز مديد، وعقد عال، وباب من حديد. يشتمل على حجر ومقاصير محكمة التقدير، فهي أبهى الأبنية سمواً، وأوفاها منظراً وعلواً»[3].

الملاحظ أنه لا يتم توجيه الميت مباشرة نحو قبره، أي إلى الرّصافة مدفن أرباب الدّولة والأمراء وإنما يتم تأخير ذلك إلى شهور بل وإلى أعوام، فنجد مرارا في كتاب المقابر والمشاهد منقول ابن أنجب بدفن أول في دار الخلافة يليه دفن ثان في الرّصافة، من مثل «ودفن بدار الخلافة وعمره ثمان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام (...) ثم نقل في ليلة رجب من السّنة المذكورة إلى التّربة الشّريفة بالرّصافة، وضريحه ظاهر هناك»[4]، وقوله «ودفن أولا بدار الخلافة؛ وهو أول من دفن بها، ثم نقل في ليلة الجمعة لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وكان عمره ستاً وثمانين سنة وعشرة أشهر، ولم يبلغ هذا القدر في الخلافة أحد قبله»[5]، ويشير ابن أنجب إلى أن عملية النّقل كانت غالبا ما تتم ليلاً، واللّيل غالباً

(1) المقابر والمشاهد، ص: 44.

(2) المقابر والمشاهد، ص: 116.

(3) المصدر نفسه، ص: 116. 117.

(4) المصدر نفسه، ص: 123. 124.

(5) المصدر نفسه، ص: 122.

مـا يسـتدعي السّـرية والسّـترة عـن الخلـق، فالإمـام العبـاس أحمد المسـتظهر بـالله حيـن وفاته «دفن بـدار الخلافـة وعمـره واحـد وأربعـون سـنة وسـتة أشـهر وتسـعة أيـام، وخلافتـه أربـع وعشـرون سـنة وثلاثـة أشـهر وواحـد وعشـرون يومـا. ثـم نقـل تابوته الشّـريف ليلة شـهر رمضان إلـى التّربة الشّـريفة بالرصافـة فدُفـن بهـا ليـلاً، وضريحـه المقـدس ظاهـر هنـاك[1]. وكـذا الأمر بالنسـبة للإمام المقتفـي «دفـن بـدار الخلافـة، وكان عمـره سـتين سـنة إلاّ أيامـاً، وخلافتـه أربعـا وعشـرين سـنة، وثلاثـة أشـهر، وأربعـة عشـر يومـا. ثـم نقـل تابوتـه المقـدس ليلـة الأربعاء ثالث عشـر ربيـع الأول مـن سـنة سـت وخمسـين وخمسـمائة. فدفـن بالتّربة الشّـريفة بالرصافـة وضريحه هنـاك ظاهر»[2].

على سبيل الختم:

لهـذا، بـل لـكل هـذا، لـم يكـن الموت حدثاً بسـيطاً وعاديـاً، قد يأتي علـى روح الواحـد منا وعلى جسـده، يُختتـم بـه برنامـج حيـاة الآدمـي ومسـاره، كما هي الـولادة، تمامـاً، تعلن عن بدايتـه. الموت بقـدر مـا هـو مـن جهة رغبة فيزيقية أو ميتافيزيقية غير مفهومة بشـكل واضح أسـبابها لنشـر الدّمار فـي الجسـد البشـري، بقـدر مـا يتحول لـدى القريبين من الميت إلـى محاولة مضادة لأجـل ترميم هذا الخـراب، بخلـق نـوع مـن الاتزان الذي أمسـى مفتقداً مع حالة المـوت، وتعويض حالـة اللاحضور بأفعـال يتداخـل فيهـا الجمالـي بالعقائـدي، لتتحـول المـوت بمـا هـو نهاية وحـدث طبيعي عـادي جداً إلـى بدايـة وحـدث ثقافـي غيـر عـادي بالمـرّة والمطلـق، والالتفـاف عليـه ليتحـول مـن مصـدر قلـق واضطـراب إلـى منبـع بركـة ونِعـم لا تنتهي، بـل ومكمن طمأنينـة وطَمأنة من الأموات أنفسـهم لمن هـم علـى قيـد الحيـاة، والمجد لله الحـيّ الذي لا يفنـى ولا يموت.

(1) المصدر نفسه، ص: 124.

(2) المصدر نفسه، ص: 125.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً المراجع العربية:

ابن أنجب، السّاعي (2008). المشاهد بجانب مدينة السّلام ومواضع قبور الخلفاء أئمة الإسلام. منشورات الخزانة الحسنية.

التنبكتي، أحمد بابا (2013). نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج (تحرير وتقديم حماه الله ولد السالم). دار الكتب العلمية.

السّبتي، عياض بن موسى بن عياض (1983). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (ج1، ط2). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

الأصفهاني، أبو القاسم الرّاغب (1987). الذّريعة إلى مكارم الشريعة (تحقيق أبو اليزيد العجمي، ط3). دار الوفا.

ابن عربي، محيي الدّين (د.ت.). الفتوحات المكية (تحقيق وتقديم عثمان يحيى و تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

القسطلاني، أحمد (د.ت.). إرشاد السّاري إلى شرح صحيح البخاري (ج5، ط7). المطبعة الكبرى الأميرية.

الكتاني، محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير (2013). تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألّف في الكُتب. منشورات مركز الدّراسات والأبحاث وإحياء التّراث بالرابطة المحمدية للعلماء. سلسلة دراسات وأبحاث، *13*.

أمغار، سمير أيت (2017). حديقة الأموات، بحث في تاريخ مقبرة الأشراف السّعديين بمراكش. منشورات آفاق.

بورخيس، خورخي لويس (2011). قصيدة إسرائيل، ضمن ديوان مديح الظل (ترجمة محمّد أبو العطا). سلسلة الشّعر، المركز القومي للترجمة.

حمدان، أحمد العَلَمي (1991). في الاستقبال النّقدي لكتاب الإحياء ضمن البنية والحجة: قراءات سيميائية وإبستيمولوجية لمظاهر من الفكر العربي. إفريقيا الشّرق.

الترجمة الصوتية لمصادر ومراجع اللغة العربية: Romanization Arabic References:

ibna ’anajbun al-sā‘iyya 2008). almushāhida bijānibi madīnati al-sullāmi wamawāḍi‘i qubūri

alkhulafā’i ’’immata al’islāmi manshūrātu alkhizānati alḥusniyyati

al-tanbaktiyyu ’aḥamida bābā 2013). nīla alibtihāju bitaṭrīzi al-dybāji taḥrīrun wataqdymu ḥamāhu al-lha waladi al-sālimi dāra alkutubi al‘ilmiyyati

al-sabtiyyu ‘īāḍu bn mūsā bn ‘īāḍu 1983). tartība almadāriki wataqrybi almasāliki lima‘rifati ’a‘lāami madhhabi mālika j ṭ wizārata al’awqāfi wa-al-shu’ūni al’islāmiyyati

al-’ṣfhāny ’abū alqāsimi al-rāghibi 1987). al-dhary‘ata ’ilā makārimi al-sharī’ati taḥqīqun ’abū alyazīdu al‘ajamiyya ṭ dāra alwafā

ibna ‘arabiyyin muḥḥiyyay al-dayyina d t). alfutūḥātu almakkiyyatu taḥqīqun wataqdymu ‘uthmāni yaḥyā wa taṣdīrun wamurāja‘atu ’ibrāhym madkūrin alhay’ata almiṣriyyata al’āmmata lil-kitābi

alqaṣtallāniyyu ’aḥamida d t). ’irshādu al-sārriyyi ’ilā sharḥi ṣaḥīḥi albukhāriyyi j ṭ almiṭba‘ata alkubrā al’amīriyyata

alkattāniyyu muḥammada bn ‘abdi alḥayyi bn ‘abdi alkabīri 2013). tārīkha almaktabāti al’islāmiyyati waman ’allafa fī alkutubi manshūrātu markazi al-dirāsāti wa-al-’bḥāthi wa’iḥyā’i al-turāthi bi-al-rābiṭati almuḥammadiyyati lil-‘ulamā’i silslatu dirāsātin wa’bḥāthin 13.

murāji'un

'mghār samīra 'yt 2017). ḥadyqata al'amwāti baḥthun fī tārīkhi maqbarati al'ashrāfi al-sa'dīīna bimarrākishin manshūrātu 'āfāqin

bwrkhys khūrkhī lūīsi 2011). qaṣīdata 'isrā'yl ḍimna dīūāni madīḥi al-ẓilli tarjamata muḥammada 'abū il'aṭā silslata al-shi'ri almarkaza alqawmiyya lil-tarjamati

ḥamdāni 'aḥamida al'alamiyyu 1991). fī alistiqbāli al-naqdiyyi likitābi al'iḥyā'i ḍimna albinyati wa-al-ḥujjati qirā'ātu sīmīā'iyyatu w'ibstymwlwjyah limaẓāhiri mina alfikri al'arabiyyi 'ifrīqyā al-sharqi

ثانياً المراجع الأجنبية:

Massignon, L. (1958). *La cité des morts au Caire: Qarâfa, Darb al-Ahmar*. Institut français d'archéologie orientale.

The Relationship of the Arab Society with Death and the Dead "In the Medieval Era as Described in Cemeteries and Mausoleums beside the City of Peace"

Mohammed Salah Bouchtalla[1]

Abstract:

Cemeteries and Shrines in our ancient history, not only in the history of Baghdad, but even in some of their remnants, may constitute the most important icon to understand historical stages, know mentalities and comprehend the emergence of religious and social traditions that are still present till modern days . Tombs, burial shrines and mausoleums in a society that glorifies the dead and fears death at the same time , are monuments that stand in the witness's position with the historian, directing and providing him with so many hypotheses, and justifying the outcome of his research when he finds in the deserted land a lot of ruins, then concludes that the country was inhabited in the past. But if he does not see anything, he cannot reach any result, as the incident occurs and gets embodied in a witness. When the historian finds a witness, he inevitably recalls the incident from which he abstracts his questions, and from which he searches for new evidences that may help him to know everything about the incident. Cemeteries, shrines, and books of merits remain living witnesses of any historical process, and are clues for the understanding of the present too. The book Cemeteries and Mausoleums beside the City of Peace, by Ali Bin Angab, is not only a painting that depicts the life of the Baghdadi citizen, but also transmits, precisely, the daily disorders of the Arab society in the Medieval ages in relationship to death, the dead and their shrines. This does not concern simple stories, but rather daily livelihood that hides concerns, feelings and a whole culture, which make the book of Ali bin Angab worthy of more than a pause, and more than a reading from multiple perspectives.

Keywords: Death, Cemeteries, Baghdad, Funerals.

(1) Faculty of Arts and Humanities Science - Cadi Ayyad University (Marrakesh - Morocco)
bmsalah83@yahoo.fr